المشرق

الاخوة الثلثة

شهداء دمشق الموارنة

بقلم حضرة الخوري منصور عوّاد

«انَّ هذا النهار هو من اعظم الايّام عندكم
ولدى الطائفة المارونيَّة العزيزة فعليكم ان
تبادروا الى تدوين حياة الشهداء ونشرها
في البلاد ليعرف الجميع فضلهم وفضيلتهم»

(البابا بيوس الحادي عشر)

مقدّمة

بالحقيقة كان اليوم العاشر من تشرين الاوّل سنة ١٩٢٦ من اعظم الايّام في تاريخ الكنيسة الشرقيّة المتحدة بالكنيسة الرومانيَّة. فقد احتفلت رومية المدينة الابديَّة حفلةً عظيمة أقلّتها امُّ المدائن وامّا سائر الصور فلا يعرف لها في العظمة والرونق شبيهاً

في تلك الحفلة الدينيَّة المقامة في كنيسة القديس بطرس الملوكيَّة أعلن قداسة الحبر الاعظم المالك سعيداً البابا بيوس الحادي عشر انهُ بسلطانه الرسولي يُحصي في مصافّ الطوبويين شهداء دمشق اي الرهبان الاخوة الاصغرين (الفرنسيسيين) عمانويل روز ورفقاءهُ السبعة ثمَّ الاخوة الثلثة الموارنة المسابكيين فونسيس وعبد المعطي ورافائيل

وعند الساعة السادسة عشرة ونصف انحدر ابو المؤمنين وجثا امام ذخائر اولئك

الشهداء الابطال واحق بخوراً لاكرامهم وطلب شفاعتهم . فكان قدوةً لجميع المؤمنين الذين حضروا تلك الحفلة الجليلة وبه تمثّلت الكنيسة الجامعة من امرائها الى احقر المؤمنين مقاماً ورتبةً

تلك حفلات الدين يتوق الى مشاهدتها اعاظم الرجال توثر في النفوس تأثيرات لا تمحوها الايام فيها تُعظَّم الفضيلة وتتوَّج القداسة بتاج المجد . فترى اصغر رجل عاش في الكمال على الارض متسربلاً بالفضائل حتى البطولة . واحقر امرأة ادركت ذروة القداسة يُرفعان في مثل تلك الحفلة الى ما لا يحلم به اعظم ملك او عامل على الارض من المجد والكرامة

وللشهيد بين هؤلاء الابطال ميزةٌ خاصَّة وهو الذي ضحّى بحياته لاجل دينه بسفك دمه مضطهَدًا مرذولاً مهاناً فيحقق قول الربّ : (يوحنّا ١٥ : ١٣) : « ليس لاحد حبّ اعظم من هذا ان يبذل نفسهُ عن احبّائه » فما قولنا بالمحبوب الأجلّ وهو الله أفلا يستحقّ الشهيد اكراماً يفوق اكرام اوليائه تعالى اذ لاجله عزَّ وجلّ بذل نفسهُ واعزّ ما لديه حياتهُ

فهذا الاكرام اراد الكرسيّ الرسوليّ ان يؤدّي الشهداء دمشق الرهبان الفرنسيسيّين والاخوة المسابكيين فنالهم من الشرف في هذه الحفلات فوق ما نالهم من الألم والعذاب في موتهم . ونحن الشرقيين ولاسيما الموارنة نفتخر بما حصل لنا من الشرف بتطويب ابناء طائفتنا شاكرين اوّلاً لقداسة الحبر الاعظم إدراجهُ الاخوة الثلثة في عداد المُطوَّبين كما اننا نشكر كل من سعى في تحقيق هذا الامر وخصوصاً غبطة السيد البطريرك الماروني الياس بطرس الحويك وسائر مطارنة الطائفة المارونيَّة بعريضة عموميَّة مع مساعدة نفّالة بذلها نيافة القاصد الرسولي السيد فريديانو جياننيي ممثل الحبر الاعظم في هذه الديار الشرقيَّة

وهيهات ان ننسى فضل السيد شرل سالّتي الموفد الى بلادنا من قداسة البابا وعلى نفقته فأجرى بالتدقيق والسرعة كل التحقيقات اللازمة والفحص القانوني لاثبات دعوى استشهاد عبيدالله وقداستهم وكان برفقته حضرة الاب سانتارلي طالب تثبيت شهداء الرهبانيَّة الفرنسيسكانيَّة

وقد استنفد السيد بشاره الشمالي رئيس اساقفة دمشق كلّ مجهوده في ترويج

قضايا الدعوى لتتمّ في الوقت المحدود وطلب من إمام الاحبار باسم طائفته الكريمة ان ينظم الاخوة الثلثة في سلك الطوبويين فتعطّف قداستهُ ملبياً اياه الى التماسه . فما لبثت ان عُقدت حفلة التطويب التي كانت من اجل ما يعاينهُ نظر الانسان لعظم رونقه وسموّ جلاله

وقد حضر الحفلة البهيّة التي أُقيمت في كنيسة القديس بطرس وفدٌ من قبل الطائفة المارونيّة سار من لبنان يرئسهُ سيادة المطران بشاره الشهالي وكان بين اعضائه الاباتي جبرائيل المشقوتي رئيس الرهبانيّة الحلبيّة اللبنانيّة العام والاباتي يوسف الخوري العراموني نائب الرهبانيّة الانطونيّة العام والبرديوط ابراهيم مسابكي النائب الاسقفي في دمشق ونسيب الشهداء مع الجالية المارونية المقيمة في رومية يتقدّمها سيادة المطران نعمة الله ابي كرم

وفي تلك الحفلة الخالدة شاركت فيها الطائفةُ المارونيّة الرهبانيّةَ الفرنسيسكانيّة العظيمة وكان يمثلها رئيسها العام وحارس الاراضي المقدّسة واقليم اسبانية الذي يفتخر بان شهداء دمشق الثانية من ابنائه وحضرها نيافة القاصد الرسولي السيد فريديانو جيانيني . وفيها التفت قداسة الحبر الاعظم بعد أن أدّى الاكرام للشهداء الى سيادة المطران بشاره الشهالي والبشر طافح على وجهه : « انَّ هذا النهار هو من اعظم الأيام عندكم ولدى الطائفة المارونيّة العزيزة فعليكم ان تبادروا الى تدوين حياة الشهداء ونشرها في البلاد ليعرف الجميع فضلهم وفضيلتهم »

ترجمة الشهداء

فاجابةً الى رغبة ابي المؤمنين احببنا ان ندوّن هنا خلاصة سيرة هؤلاء الشهداء مستندين الى المصادر الوثيقة التي رجع اليها الكرسيّ الرسولي للوقوف على مآثرهم مع ما رواهُ عنهم معاصروهم من وطنيين واجانب وجمعهُ سيادة المطران بشاره الشهالي وما دوّن في سجلّات الرهبانيّة الفرنسيسيّة والتواريخ المختلفة

فرنسيس المسابكي

هو فرنسيس بن نعمة المسابكي الماروني من عين عيون نصارى دمشق لا الموارنة

فقط في القرن التاسع عشر . نقل الينا التاريخ وصفهُ في شيخوختهِ وهو في السبعين من عمرهِ : شيخ رَبعُ القوام ابيض اللون يميل الى الحنطة مستدير الوجه مفروق الحاجبين طويل الشاربين ثاجي الشعر ممتلئ الجسم تفيض عيناهُ حكمةً وصفاء وتتمثل بنظراتهِ طمأنينة ضميرهِ وسلامة نيَّته لا تفارق فاهُ ابتسامة الكبر يتلألأ وجههُ بانوار الفضيلة فلا يتمالك الناظر اليهِ من خفض بصرهِ احتراماً ووقاراً بهِ تتمثَّل شيوخ الموارنة الذين لا يعرفون لهم كنزاً اثمن من القداسة ولا ميراثاً يبقونهُ لابنائهم افضل من مخافة الله ومحبَّتهِ

كان فرنسيس يرتدي بالقفطان الحريري المعلَّم ويتمنطق بالزُّنار الكشميري ويضع عليهِ الجبة السوداء ذات الفرّ ويتعمَّم بالعمامة السوداء الحريريَّة على طربوشهِ المغربي وكانت جميع ثيابهِ مع بساطتها من الحرير الفاخر صناعة دمشق ولا غرو وهو من اكبر تجار وطنهِ بالحرير

وقد عرفنا فرنسيس من رواية التاريخ الصادق تاجراً مثالاً وقدوةً لارباب العيال ومارونيًّا فاضلاً كبيراً ورجل دين متمسكاً بايمانهِ وشهيداً يبذل حياتهُ في سبيل معتقدهِ . ودونك الحجة على قولنا

١ التاجر

ان عائلة المسابكي من اقدم العيال النصرانيَّة في دمشق تروى لبعض اجدادهم آثارٌ ترقى الى القرن الثالث عشر . وانَّما كانت احوالهم كاحوال اهل دينهم سقيمةً الى ان اخذ النصارى في عهد فخر الدين المعنيّ امير لبنان الكبير يتمتعون ببعض الحرية الدينيَّة فامتدُّوا الى خارج لبنان وكان لهم شأن في دمشق قاعدة بلاد الشام وفي سائر سوريَّة . وقد ذكر التاريخ في القرون الثلاثة الاخيرة عدَّة رجال من بيت المسابكي شمامسة وكهنة واساقفة . وقد نما فضلهم في القرن التاسع عشر خصوصاً بزمن نعمة المسابكي واولاده الذين استشهد منهم الاخوة الثلثة

وكان لفرنسيس جاهٌ عظيم بين معارفهِ لوفرة ثروتهِ وكان يبتاع من اللبنانيين حريرهم فيشكرون معاملاتهِ لاستقامتهِ . وكان اذا سار الى لبنان من دمشق تقابلهُ القصبات والقرى بقرع الاجراس ويحتفون بهِ بالاغاني والاهازيج كأنهُ امير لبنان

او احد كبار رجاله . ويتسابقون ليشعروا لحظاهم برأى جمال طلعته وسحر ابتسامه ورقة شعوره ووداعته . وكان مشايخ بيت الخازن والدحداح وسائر زعماء لبنان في مقدمة الذين يكرمون فرنسيس ويحرضون اللبنانيين على اكرامه . اما سبب اعتبارهم لشخصه فلانهم عرفوه كأعظم تاجر من تجار الحرير واصدقهم معاملة لا يبخسهم حقوقهم ذرة فكانت ثقتهم به عمياء لانهم كانوا يرون به رجلا صالحاً غيوراً على مصالحهم اكثر منهم عليها فيقنع في تجارته بالربح القليل لتزيد ارباح زبائنه اللبنانيين . وكفى تنويهاً بفضله ان اتخذته البطريركية المارونية معتمداً لها في جميع امورها المدنية

وما كان المسلمون في دمشق وابناء المذاهب والطوائف الاخرى اقل اعتباراً لفرنسيس فان شيوخهم وتجارهم المعتبرين لا يزالون يذكرون ان تجارة الحرير في دمشق لم يقم فيها تاجر خبير ونزيه وصادق نظير فرنسيس المسابكي فربح ثقة الجميع . ولمعرفة اعيان دمشق برقة طباعه ومروءته كانوا يستدينون منه كما فعل مفتي دمشق الشيخ عبدالله الحلبي لما استقرض منه ثمانية آلاف ليرة ذهب .

ولشيوع اريحيته وسخائه كان جميع القادمين الى الفيحاء من سياح او تجار اوربيين او اعيان لبنانيين ينزلون ضيوفاً مكرمين على فرنسيس المسابكي فيقضي لهم امورهم ومشاكلهم . وكان اولاد فرنسيس ينهجون نهج والدهم ويساعدونه في تجارته كما اتضح لنا باوراق امضاها « فرنسيس المسابكي واولاده »

٢ رب العائلة

ليست القداسة محصورة في كنيسة الله بالنساك ورجال الدين وانما دُعي اليه كل مسيحي يقوم بواجبات حالته والدليل عليه ان الكنيسة نظمت في سلك قديسيها الملوك والعوام الاغنياء والفقراء الجنود والصناع المتزوجين والعزاب من كل طبقات الشعب اذ حثتوا في سلوكهم دعوة الرب : « كونوا كاملين كما ان ابانا السماوي هو كامل »

وقد كان فرنسيس الرجل الصالح دعاه الله الى الحياة العائلية فرأى في الزواج المقدس سراً من اسرار الكنيسة السبعة فاقدم عليه باحترام وخشوع واقترن في نضرة شبابه بفتاة تشبهه صلاحاً وديناً اليصابات شيحا الدمشقية من الطائفة اللاتينية .

فبارك الله زواجهما ورزقهما ثلثة صبيان وخمس بنات ربّاهم تربية مسيحيّة حقّة فكانوا على شاكلة ابيهم بمحافظتهم على وصاياهُ تعالى ووصايا كنيسته وكان مثلهُ في اقناعهم اعظم تأثيرًا من كلامهِ. فاذا رآهم الناس عرفوا فرنسيس تلك الزايا الفريدة مزايا ربّ العائلة الرصين الساعي في تخريج بنيهِ على كلّ الآداب الدينيّة والمدنيّة وهم يجلّونه اجلال أبرّ الابناء لافضل الوالدين فلا يتجاسرون بحضرتهِ على التدخين ولا يغيبون عن البيت الّا باذنهِ وهم في كلّ امورهم رهناء اشارتهِ . ومثلهم اخواهُ عبد المعطي ورافائيل وكان الاوّل يسكن في جناح من بيتهِ والثاني مقيماً معهُ

فكانت العيشة العائلية في بيت فرنسيس على غاية ما يرام من النظام والهناء. فيقدّمون على مثالهِ خدمة الله على كلّ شيء من صلاة يوميّة في بيتهم ومن تأدية الفرائض الدينيّة في ايّامها ومن مواظبة على الاسرار ومن انقياد الى اوامر رؤساء الدين ومن ممارسة كل الفضائل المسيحية وحفظ رسوم البيعة لا يأخذهُ في ذلك لومة لائم ولا يرضى بتساهل. حتى انهُ صفع مرّة بكفّ احدى حفيداته اذ رآها في يوم من ايّام الصوم الكبير سبقت ففطرت قبل الظهر

وكانوا يقضون ساعات الراحة في عقر دارهم. فيتناولون طعام العشاء مقدّمين عليهِ الصلاة وخاتمينهُ بالشكر ثمّ يلتفّون جميعهم حول السيد ابيهم فيتفاوضون بشؤونهم بكل ادب وانبساط وان وُجد عندهم ضيوف تسابقوا الى اكرامهم وتحفّوا بهم

وقد امتاز فرنسيس بسعة نظرهِ في خدمة اهل دينهِ فكان يسعى طاقة جهدهِ في توثيق عرى الحب بين كل الطوائف فكان عهدَ بنيهِ الى الآباء الفرنسيسكان ليهذّبوهم في الامور الدينيّة والادبيّة . وزوّج بناتهِ الخمس لابناء الطوائف الكاثوليكيّة المختلفة فصاهر اعيان اللاتين والسريان والروم الكاثوليك والموارنة. ولحسن تهذيبهِ لبناتهِ كان يرغب الشبان في خطبتهنّ لا لجمالهنّ او غناهنّ بل خصوصاً لفضائلهنّ وجودة تربيتهنّ

وكان في معاملاتهِ مع عموم اهل وطنهِ يصرف جهدهُ في اكتساب حبّهم بلطفهِ ودماثة طباعهِ. وعلى تلك السجايا الطيّبة كان يدرّب ابناءهُ. فمنهم كان ميخائيل الذي درس في مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير ثمّ شاركهم في خدمة الآداب في مطبعتهم

بيروت فعرّب مختصر التاريخ المقدّس وكتاب القانوني شبيت المعروف بالمانة حكاية ادبيّة ومات برائحة القداسة

٣ رجل الله

قد اختصر صاحب سفر الجامعة وصف الرجل الكامل في هذه الآية (١٢: ١٣): «اتّقِ الله واحفظ وصاياه فانّ هذا هو الانسان كلّه» وكأني بفرنسيس اتّخذ هذه الآية لحياته شعارًا

أجل انهُ لم يكن لهُ مثيل في دمشق بالجاه والفضل وهو وجيه النصارى على الاطلاق وعميد الموارنة على الخصوص ولسانهم لدى حكومة دمشق وعين تجار المدينة يرجعون اليهِ في شؤونهم التجاريّة ولاسيما تجارة الحرير. كما انّ جميع اهل لبنان من رؤساء ومرؤوسين يكرمونهُ ايّ اكرام ويتراحمون الى معاملاتهِ لا يعرفون لهُ نِدًّا

الّا انّ فرنسيس لم يبطرهُ الجاه العالميّ بل كانت وجاهتهُ تزيدهُ تمسّكاً في دينهِ فكما كان وجيه دمشق وفخر تجارها كان ايضاً مثال الاتقياء يعجبون بايمانهِ الحيّ ولنا على تقواهُ شهادة عيانيّ عرفتهُ وهو في الحادية عشرة من عمرهِ اذ بلغ فرنسيس فجر عقدهِ الثامن تعنى بهِ الشيخ الوقور سليم افندي خاشو الارمني الكاثوليكي قائلاً: «عرفت فرنسيس المسابكي اذ كنتُ اراهُ كل صباح في دير الآباء الفرنسيسكان في دمشق يبكر لاستماع القداس وكان في كل عيد يتقرّب الى سرّي التوبة والقربان واذا عُقدت حفلة دينية في مساء نهار يسرع الى قفل مخزنهِ ليحضرها. ومع تقدّمه في العمر لم يتخلّف عن صيامات الكنيسة وقطاعاتها في عموم السنة وينقطع ليس عن اللحوم والبياض فقط بل يحتمي ايضاً عن اكل الزيت مكتفياً بالخضر المسلوقة والنواشف

امّا محبّتهُ للفقراء والبائسين فكان يشهد عليها مواطنوهُ ولم يكتفِ بان يزكّي مالهُ بالاحسان عليهم وبتوزيع الصدقات الواسعة على البائسين مدّة حياتهِ بل شاء ان يجعل لهم حصّة في وراثتهِ فاوصى للبُرَص ببيت صغير وخصّص مبلغاً آخر باعمال البرّ. وقد اطلع صديقهُ يوسف المهندم على وصيّتهِ التي تلفت مع اوراقهِ بالحريق في حوادث السنة ١٨٦٠. لكنّها لا تزال مكتوبة باحرف ذهبيّة في عين الله الذي يعتبر كقرض لهُ كلّ ما يعطى للفقير

عبد المعطي ورافائيل المسابكي

كنّا نودّ ان نعرف من اخبار فرنسيس المسابكي ما يطلعنا على عظم فضلهِ وسموّ برّهِ مع اجماع معاصريهِ على اطراء مآثرهِ فلم يبلغنا منها إلّا بقايا صبرت على آفات الزمان. امّا شقيقاهُ عبد المعطي ورافائيل فانّ ما افادنا عنهما التاريخ لا يزيد على اسطر مقتضبة وهذا لا يبخس حقّهما وقد شاركاهُ في حياتهِ الفضلى وفي ميتتهِ الشريفة.

وما نعلمهُ عنهما اجمالًا انّ الاواخي التي كانت تربطهما بأخيهما فرنسيس لم تكن اواصر القرابة فقط بل علائق اوثق واجلّ اي روابط البرّ والصلاح وتناهيك بها عزًّا وشرفًا

﴿عبد المعطي﴾ كما وصفهُ لنا الذين عرفوهُ كان معتدل القامة رقيق الجسم نحيلًا وكان حليقًا خفيف الشعر طويل الشاربين جميل الطلعة حنطي اللون يميل الى البياض لبسهُ على زيّ ابناء عصره يرتدي بالقفطان الحريري والزنّار الكشميري ولا يفارقهُ رداؤهُ القصير

وكانت تلوح على وجههِ مسحة العبادة والتقشف مع حلاوة جذّابة ولا يزال مطرقًا مفكرًا في ربّه يهذّ ليلًا ونهارًا في الامور الروحيّة

تزوّج عبد المعطي من ابنة سكزان ورُزق منها نعمة ويوسف وثلاث بنات وكان مقيماً في دار شقيقهِ فرنسيس منفردًا بالمعاش مع اهلهِ . وقد تعاطى في اوّل شبابهِ التجارة وزاولها مدّة ثمّ حاد عنها لرقّة ضميرهِ خوفًا من ان يلحقهُ بها بعض الاجحاف في المعاملات تسبّب لهُ قلقًا ووساساً . ثمّ انصرف الى تهذيب الاولاد وتعليم الناشئة بالتدريس في دير الآباء الفرنسيسكان فقام بهذا العمل بغيرة عجيبة كأنّهُ راهبٌ منهم كما ذكرهُ بعض الشيوخ المتخرّجين عليهِ وهم يدعون اسمهُ « المعطي » اختصارًا

وقد حقّ استهُ فيهم بكل معناهُ فانّهُ اعطاهم بكل سخاء وتدقيق ما كان يعرفهُ من اصول اللغة وقواعد الدين الكاثوليكي ولكنهُ كان على تهذيبهم احرص منهُ على تعليمهم . كان يعاملهم بكل عناية ومحبّة ورزانة فكانوا يهابونهُ ويكرمونهُ

وكان لا يفرق بينهم باهتمامه فيعتبرهم كلّهم كابنائه وابناء شقيقه . وكان يعمل فيهم خصوصاً مثلهُ الصالح اذ يرونهُ جاثياً في الكنيسة على الحضيض دون حراك حتى اصبح جلد ركبتيه جاسياً كجلد الجمل

وكان يلازم بيت الله طافة جهده فيسبق الجميع صباحاً الى استماع اوّل قدّاس وذلك حتى في زمن الشتاء والزمهرير فيعرف الناس آثار اقدامه وأقدام ابنته في الثلج . فكان لا يدع رتبة دينيّة إلّا حضرها وكان في قرب الاعياد يُعيدّ تلامذتهُ لحفلاتها ليواظبوا على الاسرار ويساعدوا بالصلوات والتراتيل على رونقها . وكانت عادة الكاثوليك في تلك الايّام ان يتناولوا القربان الاقدس في الاعياد الكبيرة فقط اما عبد المعطي كشقيقه فرنسيس كان لا يدع احدًا او عيدًا دون ان يجلس الى المائدة الالهيّة ولو سُمح لهُ بالمناولة اليوميّة لَما تأخر عن قبول الضيف السماويّ . اذ كانوا يرونهُ قبل مناولاته وبعدها كأنّهُ غائبٌ عن الحسّ غائصٌ في مناجاة السماء —

فمن كانت هذه اخلاقهُ الراقية ليس من عجب ان يكون عُني بتربية آل بيته وقد يقول المثل انّ من اشبه اباهُ ما ظلم فانهُ غرس في قلوبهم خوفهُ تعالى فعاشوا كمسيحيين عاملين وقد اختار الله احدى بناته لخدمته فدخلت عند راهبات المحبة وتعاطت سنين طويلة كل اعمال الرحمة ألا وهي الراهبة افرازيا مبكي التي ماتت في رائحة القداسة

﴿رافائيل﴾ هو الفرع الثالث من تلك الزيتونة المباركة التي قال عنها صاحب المزامير (١١٧ : ٣) : «انت كزيتونة وابنائك على مائدتك حولك» . ولم ينقص هذا الفرع عن شقيقيه حسناً ونضارةً . كان رافائيل يسكن في بيت فرنسيس شقيقه وقد لزم العزوبة تمثلًا فاعتزل عن العالم وخوضائه فكان يصرف وقتهُ في غرفته او في الكنيسة وانّما كان يساعد اخاهُ فرنسيس في اشغاله . وعيشتهُ هذه في الوحدة وابتعادهُ عن الناس كانا السبب لقلّة ما نقل لنا معاصروهُ مِنْ اخباره وفضائله . وكفاهُ شهادةً على براءته وعظم فضله انهُ ضحّى كاخويه بحياته في سبيل دينه الكاثوليكي

ليس من يقطع طرقًا بطلًا انّما من يتقي الله البطل —

امّا ما عرفنا من وصف صورته فانهُ كان قصير القامة كامل الجسم رقيقهُ يشبه بصورته اخاهُ عبد المعطي لونهُ الى البياض ببعض السُمرة مستدير الوجه عريض الجبهة

بارز الانف مفروق الحاجبين كبير العينين كثيف الشعر حليق اللحيـة زيّه كزيّ اخويه بسذاجته

عرفنا ولو معرفةً خفيفة الاخوة المـابكيين الثلثة في سلوكهم الاجتماعي فبقي علينا ان نصفهم في موتهم الشريف

اوّل المخاض

قال السـيد المسيح في انجيله الطاهر يوحنا (١٦ : ٢) : « ستأتي ساعة يظنُّ فيها كل من يقتلكم انهُ يقرّب لله قرباناً » . فكلامهُ تعالى قد تمّ بالحرف في مذابح النصارى السنة ١٨٦٠

كان نصارى الشام عائشين منذ عدّة سنين مع مواطنيهم المسلمين والدروز بسلام واتفاق . فما كان المسلم يكره النصراني وآيات قرآنه لا توحي اليه بالنصارى الّا خيراً . وكذلك المسيحي لعلمه بضمنه وقلّة عدد اهل ملّته ما كان ليحرّك الضغينة في قلب المسلم فضلاً عن انّ دينهُ يأمره بمحبة قريبه كنفسه . وكان ان صدر شيء من المشاحنات في بعض الافراد من الجانبين اسرع عقلاء القوم فازالوا بينها ذات البين

فكيف اذن وقعت تلك المجازر ؟ مَن أثار تلك النعرة السـدينيّة التي أدّت الى استشهاد هؤلاء الاخوة؟ انّما كان ذلك بفعل رؤساء الدولة العثمانيّة ترويجاً لمآربهم الباطلة واغراضهم الفاسدة فاقاموا حكّاماً ودفعوهم الى اثارة البغضـاء في القلوب واشاعوا الاكاذيب في حقّ النصارى ثمّ اطلقوا العنـان لرعـاع القوم ليضربوهم ضربة لازبة بقتلهم وسلب اموالهم واستئصال شأفتهم زعماً بنهم انّ وجودهم في الدولة العثمانيّة آفةٌ عليها وبسببهم تُغير الدولُ الاوربيّة على بلاد الاسلام ولم يزالوا يقتلون بالذبوة والخارب حتى هاجت البلاد

وانتشرت الثورة اوّلاً في راشيّا وحاصبيّا ثمّ في دير القمر وزحلة فقُتل بضعـة آلوف من النصارى خصوصاً على يد الدروز

ثم اخذت الثورة تنتشر في سواحل الشام باغراء خرشيد باشا ولكانت سالت فيها الدماء الزكيّة لولا وجود القناصل ومراكب الدول الاجنبيّـة وعـسكر كسروان النصراني . امّا دمشق فلبعدها عن البحر وكثرة اهلها المسلمين قـد رأى احمد باشا

التركي انهُ يستطيع ان يحقق فيها نيّات الحكومة السيئة

وقد روى احد الشهود العيان في العام الماضي في المشرق (٢٤ [١٩٢٦]: ٩١٥ـــ ٩٢٦) الحوادث المفجعة التي جرت في دمشق فأتسع في بيان اسبابها وتفاصيل فظائعها التي ترتجف لها الابدان وترتعد الفرائص بقتل الرجال وسبي النساء ونهب البيوت وحريق حيّ النصارى وكنائسهم ونجاة من دخل منهم تحت حماية الامير عبد القادر الجزائري فنحيل القرّاء الى مراجعتها. وانّا نكتفي هنا بذكر شهدائنا الطوبويين

وقد جاء هناك ان الرهبان الفرنسيسكان لم يخرجوا من ديرهم ليلتجئوا الى دار الامير عبد القادر كما فعل غيرهم لظنهم ان الاقامة في ديرهم آمنٌ على حياتهم وهم رهبان تحت حماية فرنسة اصلهم من دولة اجنبيّة لا خلاف بينها وبين الدولة العثمانية. فلم يتحقّق ظنّهم فذهبوا ضحايا الحميّة وبغض الدين كما سترى

الثورة في دمشق

كان يوم الاثنين التاسع من شهر تموز من السنة ١٨٦٠ من اشأم الأيام وافجعها على النصارى. تظاهر والي دمشق اوّلاً تضليلاً الافكار انهُ يتشدّد على المسلمين ويقاصّ بعض شبّانهم واعيانهم حتى هاج الناس بسببهم ثمّ أطلق في القلعة مدفعاً في عصر النهار كان العلامة المتّفق عليها بينهم للاغارة على النصارى. ففي لمحة العين هجم عدد عديد من الاشقياء ونفذوا في حيّ النصارى في باب توما وفي ايديهم السيوف والخناجر والكربينات والبلطات وادوات الحريق والدمار وكانت جلبة اصواتهم تملأ الفضاء وامتزج بها نباح الكلاب وصياح النصارى وعويل الاولاد وولولة النساء. فما مرّ برهة من الزمان حتى سالت الدماء ونُهبت البيوت والمخازن واخذ لسان النار يندلع في انحاء شتى يلتهم الاموال ويخرب الابنية

ففي تلك الساعة الرهيبة خرج فرنسيس مسابكي من داره المجاذي لدير الآباء الفرنسيسكان ليزورهم ويطلب عندهم لهُ ولعائلته ملجأ فلاقوهُ بالاكرام والتجأة حسب مألوف عادتهم ولاسيما انهم كانوا يحترمون بهِ الشيخ الوقور الصالح والتاجر المحسن الى ديرهم والمدافع عنهم لدى الحكومة وهو مدمن العبادة والصلاة في كنيستهم. واذ سألوهُ عمّا يرى من احوال المدينة روى لهم ما يعرفهُ من تعصّب اعداء النصارى

وابان لهم مخاوفهُ من شرّهم . فزاد قلق الرهبان واجتمعوا في الكنيسة حيث كان سبقهم رافائيل المسابكي شقيق فرنسيس ليصلي

اما عبد المطي فكان لم يزل في مدرستهِ مع جملة من الاحداث فلمَّا بلغهُ خبر هيجان المسلمين اخذ يحضُّ تلامذتهُ على التمسُّك بدينهم وتفضيل الموت على ارتكاب خطيئة واحدة . ثمَّ رأى بمشورة الآباء ان يصرفهم الى اهلهم لئلَّا تقع على الرهبان المسئولية بسبب ضرر يلحق بهم ان لبثوا في الدير . واما بقي مع فرنسيس ابنهُ ميخائيل ومع عبد المطي ولدهُ وتلميذ مدرستهِ نعمة وبعض الافراد كما روى سايم افندي خاشو الذي كان في جملة التلامذة المنصرفين

ولمَّا خرج التلاميذ امر الرئيس بان يُقفل باب الدير ولم يسمح لاحد ان يدخلهُ حتى لنائب السقف الموارنة وخادم رعيتهم الاب موسى كرم مؤرخ تلك الحوادث لئلَّا يتخذ القوم وجودهُ بينهم سبباً للفتك بهم ولهُ بينهم خصومٌ ألدَّاء . فوافقهم وكرَّ راجعاً ولاذ بالامير عبد القادر ثمَّ بالقامة فنجا . ولكان الرهبان الملتجئون الى الدير نجوا ايضاً لو لبَّوا دعوة قنصل فرنسة الذي اوفد اليهم مرَّتين وكيلهُ ابرهيم شيحا للخروج من الدير ليذهبوا معهُ برفقة جنود عبد القادر الى مأمن . واما لزموا السكوت كما امرهم الرئيس وسلَّموا امرهم الى الله مطمئنين الى حسن نيَّة الدولة التي عرفتهم مخلصين في خدمتها منذ مئتين من السنين فليس من داعٍ الى اذيَّتهم

بقوا في مساء النهار يستحثُّون بالصلاة امام القربان الى ان ارخى الليل سدولهُ وخيَّم الظلام على دمشق وهم يسمعون جلبة الثوَّار وصراخ القتلى بما تتفتَّت لهُ الاكباد وكانت اصوات القوم تزيد تقرُّباً فأيقنوا بوقوع ما لم يكن في الحسبان وتحقَّقوا دنوَّ اجلهم فبادروا الى قبول الاسرار واعترف كل منهم بكل خشوع وندامة واستعدُّوا للاقاة ربِّهم . ودعاهم الرئيس الى مائدة الخلاص فتناولهم الزَّاد الاخير وذكَّرهم بتواقف الشهداء اجدادهم وحرَّضهم على التضحية بحياتهم حبًّا لاله الصليب . فادركوا ما يطلبهُ الرب منهم فاخذوا يشجعون بعضهم بعضاً . ثمَّ تلا رئيس الرهبان طلبة القديسين ليستمدُّوا منهم القوَّة في ذاك الجهاد الخطير فكانوا يجيبون لابتهالات الطلبة بصوت جهوري واصغاء تامّ . ثمَّ تفرَّقوا في الكنيسة عند مذابحها فناصوا في الصلاة وخصوصاً بازاء الهيكل الكبير حيث كان لم يزل القربان محفوظاً

لساوانهم وتقوية عزائمهم وامسام صورة البتول سلطانة الشهداء

وبعد حين صعد رافائيل الى سطح الدير مع بعض الآباء ليروا ماذا حل بجي النصارى فشاهدوا النيران تلتهم البيوت ودخاناً كثيفاً منبسطاً في الجو . واحرا في الازقة فئات من القتلة ينقضُّون انقضاض الذئاب الكاسرة على النصارى الهاربين امامهم . وكانت الاصوات تتقارب الى الدير حتى كادت تدركهُ عند منتصف الليل

شهداء الايمان

واذا بجمهور من اولئك الرعاع هجموا على بوَّابة الدير وهي مصفَّحة بالحديد فضربوها ضربات متتالية فلم يستطيعوا فتحها وهم يقذفون الدين النصراني بأقطع الشتائم . وبقوا على ذلك مدَّة حتى كادوا ييأسون من النفوذ الى وسط الدير فحينئذٍ دخل بينهم المسمَّى حسن العلَّاف كان حانوتهُ مجاورًا لهُ فارشدهم الى باب صغير كان يسلَّم منهُ الى اهل الدير ما يحتاجون اليهِ لمطبخهم من اللحم والبقول . فما وقفوا على الامر بخيانة الرجل حتى تبعوهُ وحطَّموا الباب بلمحة عين ودخلوا كالسيل الجارف

فكان اوَّل ما فكر فيهِ الرئيس ان يصون القربان المقدَّس من دنَّاساتهم فقال لهم : « دعوني ان آتيكم بكنز خفي » فاسرع الى بيت القربان وتناول ما بقي من خبزه الجوهري ثمَّ التفت اليهم قائلًا : هذا هو المخبأ وليس لديَّ كنزٌ آخر فما كان منهم إلَّا ان ضربوهُ بسيوفهم عند المذبح فضرَّجهُ بدمهِ الطاهر

وكان ﴿فرنسيس﴾ في تلك الساعة يصلي في الكنيسة فلما رأى القوم منبثين في الدير نهض نحو الباب فالتقى بارلئك القتلة فعرفوهُ وتهيَّبوا فورًا جلالهُ وشيخوختهُ فكلَّموه بهدوء قائلين : قد بعثنا الشيخ عبدالله الحلبي مفتي دمشق لنخلصك انت ومن معك على شرط ان تجحد دينك وتُسلم . فاجابهم فرنسيس بكل رزانة وبصوت جهور : اذهبوا وقولوا للشيخ عبدالله . اني اسامحهُ بما لي عليهِ من المال (اعني ثمانية آلاف ليرة ذهب) امَّا ديني فلا يستطيع احد ان ينزعهُ مني فانَّ نفسي لله وحده . فقالوا : ان لم تجب الى دعوتهِ أمرنا بقتلك . فقال : اصنعوا ما شئتم ولكن قد كُتب في الانجيل : « لا تخافوا ممَّن يقتل الجسد ولا يستطيع ان يقتل النفس . بل خافوا ممَّن يمكنهُ ان يهلك النفس والجسد في جهنَّم » . قال هذا وهم بالصلاة لكنَّهم لم يدعوهُ ينجزها بل اسرعوا فيه

سيوفهم ونزوسهم فأتمّ صلاتهُ في السماء وانتثرت لحانهُ وسالت دماؤهُ على الحضيض

وكان ﴿عبد المعطي﴾ على سطح الدير عند دخول المعتدين فنزل ليحتمي في الكنيسة الى جانب اخيهِ فلقيَهُ القتلة واسكوهُ ثمَّ اهانوهُ وعرضوا عليهِ الاسلام لينجو من الموت. فصرخ للحال باعلى صوتهِ: انا مسيحي اقتلوني اقتلوني. فتناولتهُ ضربات اسلحتهم بكلّ شراسة وشناعة ففاضت روحهُ الطاهرة عند مذبح العذراء ولحق بشقيقهِ في دار الخلود

اما ﴿رافائيل﴾ فكان مختبئاً في بعض زوايا الدير فلقيهُ المغتصبون وطلبوا منهُ ايضاً ان يدين بدينهم فما كان منهُ إلّا ان جثا مصلّياً فاطاروا رأسهُ وبهِ تمّت تلك الضحيّة المثلثة التي تنفّسها الله برائحة الرضى واعدَّ لاصحابها اكليل الظفر الذي يحلّل هامّهم الى الابد

وكان الرهبان قد اجتمعوا ايضاً في كنيستهم فقتلهم اولئك الاشرار قتل الحملان وكانوا اذا قتلوا واحداً يدقّون الجرس مقهقهين ومبالغين في الوقاحة قائلين: ابتدأ القدّاس وكان عدد الرهبان مع رئيسهم ثمانية استحقوا تطويبات الربّ الثاني وجزاءهُ حيث يقول: افرحوا وتهلّلوا فان جزاءكم عظيم في السماء

وقد نجا من هذه المجزرة نعمة بن عبد المعطي وميخائيل بن فرنسيس اذ وجدا مختبأً امكنهما منهُ ان يعاينا استشهاد والديهما وعمّيهما فأدّيا شهادة صادقة عن شهامتهم وامتزاج دماء بني مارون بدماء ابناء القديس فرنسيس فتأهلوا ان يشتركوا في مجد السماء كما اشتركوا بآلام ابن الله بموتهم الشريف

على انَّ الله عزَّ وجلّ الذي يجزل ثواب عبيدهِ في جنان الخلود كثيراً ما يمجّدهم حتى في هذا العالم لينتقم لهم من اعدائهم وليكون مثلهم قدوةً بين البشر حتى اذا رأوا شرفهم يتقفّوا آثارهم ولا يخافوا ان يبذلوا النفس والنفيس لربح الخيرات السماويّة

وهذا ما نراهُ في شهداء دمشق الذين فتك بهم اعداؤهم فالاعداء باد ريحهم وانقرض اسمهم وها هوذا ذكر الشهداء مخلّد أدرجت اسماؤهم في سجلّ القديسين والعالم الكاثوليكي يطري مآثرهم. قد أقيمت الاعياد الفاخرة تعظيماً لشهامتهم فاتّسمت الصحافة بما عُقد من الحفلات البهجة احتفاء بذكرهم لاسيما في مصر ودمشق وبيروت وحيفا حيث زيّنت الكنائس وأقيمت الرتب الطقسية الجليلة التي حضرها ارباب

الدين والدنيا ورنّت لفاخرهم البيع ببلاغة الخطباء فنطقت ألسنة جماهير الشعب بحامد شهداء دمشق . ومنذ الآن ستتجدّد كلّ سنة حفلة عيدهم في الكنيسة المارونيّة التي تعدُّهم كباكورة ابنائها الذين نالوا هـذا الامتياز الفائق . اعاد الله على سائر الطائفة هذه الاعياد بمزيد الفرح واحظاها بتثبيت غيرهم من ابرارها الصالحين

الحكمة المصرية في عهد الفراعنة

عن مقالة لحضرة الاب الكسيس مالون اليسوعي ببعض تصرّف

انّ الآثار الكتابيّة التي وُجدت في وادي النيل لم توقفنا فقط على تاريخ قدماء المصريين وفنونهم العجيبة وادیانهم بل افادتنا ايضاً عن آدابهم وحكمتهم الراقية

كلام مجمل عن حكم المصريين وشيوعها

ومن الحكماء الذين كان الاثريون وقفوا على كتاباتهم بعضُ وزراء الفراعنة وكهنة مصر وغيرهم كالحكماء فتاح حوتيب وخطي وامِنِمْحات وأبي الذين لهم اقوال حكميّة وامثال وادبيّات تدلُّ على حُسن نظرهم واتّقاد ذهنهم إلّا انّ افكارهم لا تتجاوز افكار حكماء الشرق المبنيّة على الفطرة الصالحة وأصالة الرأي وسلامة الذوق التي تُرى في اثار سواهم وربّما طابقت اقوالًا وردت في الاسفار المقدّسة دون أن يُمكن الحكم بانها منقولة عنها او إثبات ايّ هو الناقل عن الآخر

ومن المعلوم ان المعاملات بين مصر وفلسطين لقرب تخومهما كانت متواترة فليس من العجب ان تكون حِكَم احد القطرين نفذت في القطر الآخر فوقع التشابه بينها . بل ليس من المستبعد ان يكون المصريون وقفوا على بعض كتابات بني اسرائيل كما انّ بني اسرائيل اطّلعوا على بعض تآليف المصريين . وقد جاء في سفر الاعمال ٧ : ٢٢) عن لسان القديس استفانس « انّ موسى النبيّ تأدّب بحكمة المصريين كلها » فلو ثبت إذن ان كتبة الاسفار الالهيّة استعاروا بعض الحكم من المصريين لا يكون ذلك نقصاً في عملهم كما انّهم استعاروا عن حكماء زمانهم القريبين منهم امثالًا وحكماً اثبتوها مع التصريح باسماء قائليها . فتجد خصوصاً في امثال سليمان منقولات مثل هذه . ففي الفصل ٢٢ : ١٧ يقول « أميل أذنك واسمع كلام الحكماء » وفي الفصل